

السلفية المعاصرة والظلم العظيم في قضية ولي الأمر



www.alhrammain.com

عبد الوهاب الأفندى

أعادت قضية قتل الصحافي السعودي، جمال خاشقji، إلى الواجهة مرة أخرى مسألة دور من يسمون أنفسهم علماء الدين، وخصوصاً من المنتسبين إلى التيار السلفي المتسيّد (بأمر الدولة وتوجيهها) على الساحة العامة في المملكة العربية السعودية.

فقد سارعت طائفة من هؤلاء لدعم الموقف الرسمي على مذهب انصر أخاك (أو سيدك) طالماً أو مظلوماً. صرّح أحدهم مثلاً بعدم جواز نصّ الحاكم علينا، لأنّ هذا من "كشف العيوب" التي ينبغي أن تبقى مستورّة. وقد تفوّق آخر كان عند بعضهم مرجواً قبل هذا ليشبّه حاكم السعودية بالرسول الكريم، وبشبّه من أرسلهم لقتل خاشقji بخالد بن الوليد، بحسبان أنّهم "أخطأوا"، ما يوجب التبرؤ اللفظي من أفعالهم، فتعود الأمور إلى نصابها، وكفي بهذا التشبيه إساءة للإسلام ونبيه!

وصف ثالثٌ في خطبة دينية (قبل أن تعرف المملكة بالجريمة) أنّ اتهام جهاتٍ سعوديةٍ بهذه الجريمة ما هو إلا شائعاتٌ وحملاتٌ إعلاميةٌ مُغرضةٌ، ومحاولةٌ فاشلةٌ لتعويق "مسيرة التجديد في هذه البلاد المباركة برعايةٍ من ولة أمرها، وحرصٍ واهتمامٍ من الشاب الطَّمْوح المُحَمَّدِيَّ المُلَاهِيَّ عهد هذه البلاد المحرّسة".

وأضاف أنّ البلاد ستظل متسلّلةً "بمبادئها وثوابتها، معتمدةً في ذلك على الله وحده، ثم على حكمة قادتها، وتلامح أبنائها، فهي الكفيلة بإذن الله لمواجهة المزاعم الباطلة". ووصف ما اعترف به القيادة "الحكيمة الملهمة" فيما بعد بأنّه حقٌّ مبين.

تأتي كل هذه المواقف من مبدأ تروّجـه المدارس السلفية بدرجاتٍ متفاوتة، وهي أن طاعة ولـي الأمر تظل واجبةً مهما طغـى وتجـبر وظلمـ، حتى يعلن الكـفر الـبـواحـ.

ويبدو أن الشرط الأـخـير قد انتـفىـ، حيث إن صـاحـبـ الخـطـبـةـ أـعـلاـهـ وـغـيـرـهـ قدـ أـفـتـواـ بـطـاعـةـ تـراـمـبـ، بلـ وـبـطـاعـةـ نـتـنـيـاهـوـ، وـولـيـ أـمـرـهـ يـجـتـهـدـ الـآنـ فيـ تـرـتـيبـ ماـ وـصـفـتـ بـصـفـقـةـ الـقـرـنـ، الـتـيـ بـمـوجـبـهـاـ يـفـرـضـ عـلـىـ كـلـ الـفـلـسـطـينـيـيـنـ الـبـيـعـةـ لـخـادـمـ ثـالـثـ الـحرـمـيـنـ، مـوـلـانـاـ بـنـيـامـيـنـ بـنـ نـتـنـيـاهـوـ وـولـيـ عـهـدـ الـأـمـيـنـ، أـفـيـغـدـورـ لـيـبـرـمـانـ.

وقد وفـرـ عـلـيـنـاـ آـخـرـ منـ أـدـعـيـاءـ الـعـلـمـ عـنـاءـ إـبـطـالـ هـذـاـ الـمـبـدـأـ الـغـرـبـ، وـذـلـكـ بـالـتـطـوـعـ بـمـاـ يـسـمـيـهـ الـفـلـاسـفـةـ "ـبـرـهـانـ الـخـلـفـ"ـ (ـأـيـ بـيـانـ أـنـ الـمـبـدـأـ تـنـطـيـقـ عـلـيـهـ نـتـائـجـ لـاـ يـقـبـلـهـاـ عـقـلـ)ـ عـلـىـ بـطـلـانـهـ، حـينـ أـفـتـيـ بـأـنـهـ لـاـ تـجـوزـ نـصـيـحةـ الـحـاـكـمـ عـلـنـاـ، حـتـىـ لـوـ زـنـاـ وـشـرـبـ الـخـمـرـ عـلـنـاـ.

يـقـولـ صـاحـبـنـاـ (ـوـفـيـ دـرـسـ قـدـ مـهـ فـيـ مـدـيـنـةـ رـسـوـلـ اـهـ صـلـىـ اـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ)ـ "ـإـنـهـ لـوـ قـامـ الـحـاـكـمـ بـالـزـنـاـ لـمـدـةـ نـصـفـ سـاعـةـ، وـشـرـبـ الـخـمـرـ عـلـىـ التـلـفـزـيـوـنـ الرـسـمـيـ، فـإـنـهـ لـاـ يـصـحـ"ـ الـخـرـوجـ عـلـيـهـ".

بـلـ لـاـ يـجـوزـ النـهـيـ عـلـنـاـ عنـ هـذـاـ إـلـئـمـ الـمـبـيـنـ الـمـتـلـفـزـ، كـمـاـ "ـلـاـ يـجـوزـ لـكـ التـحـريـصـ عـلـيـهـ، وـلـاـ ذـكـرـ اـسـمـهـ، لـاـ تـصـرـيـحـاـ وـلـاـ تـعـرـيـضاـ".ـ فـمـنـ الـوـاـضـحـ أـيـ مـبـدـأـ تـنـتـرـتـبـ عـلـيـهـ نـتـائـجـ مـثـلـ هـذـهـ بـاطـلـ عـقـلـاـ وـشـرـعاـ.

فـحتـىـ فـيـ أـكـثـرـ بـلـدانـ الـعـالـمـ لـيـبـرـالـيـةـ، لـاـ يـمـكـنـ لـمـنـ يـمـارـسـ الـتـمـثـيلـ فـيـ أـفـلـامـ إـبـاحـيـةـ أـنـ يـتـولـيـ أـيـ مـنـصـ عامـ، مـهـماـ صـغـرـ، حـتـىـ لـوـ كـانـ تـابـ إـلـىـ اـهـ، وـتـرـكـ تـلـكـ الـمـهـنـةـ، فـمـاـ بـالـكـ بـزـعـيمـ أـمـةـ إـسـلـامـيـةـ، لـاـ يـفـتـرـضـ أـنـ تـبـثـ فـيـهـاـ مـثـلـ هـذـهـ الـمـشـاـهـدـ أـسـاسـاـ.

(ـإـلـاـ إـذـاـ كـانـ صـاحـبـنـاـ يـعـلـمـ مـاـ لـاـ نـعـلـمـ عـنـ قـرـبـ بـثـ مـشـاـهـدـ إـبـاحـيـةـ فـيـ "ـالـتـلـفـزـيـوـنـ الرـسـمـيـ"ـ فـيـ بـلـادـ الـحـرـمـيـنـ، يـشـارـكـ فـيـهـاـ أـوـلـيـاءـ الـأـمـرـ).

وـنـحـنـ نـتـابـ الـيـوـمـ كـيـفـ قـاـمـ الـقـيـامـةـ عـلـىـ الرـئـيـسـ الـأـمـيـرـكـيـ الـحـالـيـ، بـسـبـبـ عـلـاقـةـ سـرـيـةـ (ـغـيـرـ مـتـلـفـزـةـ)ـ مـمـثـلـةـ إـبـاحـيـةـ.ـ وـنـحـنـ هـنـاـ لـمـ نـتـحدـثـ عـنـ الـقـيـمـ الـعـرـبـيـةـ إـلـيـهـ حـولـ الـأـفـعـالـ الـتـيـ "ـتـخـرـقـ الـمـرـوـءـةـ"ـ، وـتـحـظرـ عـلـىـ صـاحـبـهاـ الـمـنـاصـبـ الـعـامـةـ فـيـ أـيـ مـجـتمـعـ، حـتـىـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ.

نـحـنـ هـنـاـ إـذـنـ أـمـامـ إـشـكـالـ كـبـيرـ وـانـحرـافـ غـيـرـ مـقـبـولـ فـيـ الـفـكـرـ السـلـفـيـ، دـفـعـهـ إـلـىـ مـخـالـفـةـ أـحـدـ أـهـمـ مـبـادـئـ، هـوـ مـبـدـأـ التـوـحـيدـ.ـ ذـلـكـ أـنـ هـذـهـ التـوـجـهـاتـ تـجـسـدـ مـاـ يـرـاهـ السـلـفـيـوـنـ أـنـفـسـهـمـ شـرـكـاـ بـوـاحـاـ، اـسـتـنـادـاـ إـلـىـ تـفـسـيـرـ نـبـيـ إـلـيـسـمـ آـيـةـ اـتـخـاذـ بـعـضـ أـهـلـ الـكـتـابـ أـحـبـارـهـمـ وـرـهـبـاـنـهـمـ أـرـبـاـبـاـ مـنـ دـونـ اـهـ بـأـنـهـمـ قـبـلـواـ مـنـهـمـ تـحـرـيمـ الـحـلـالـ وـتـحـلـيلـ الـحـرـامـ، أـيـ قـبـلـواـ بـهـمـ سـلـطـةـ دـيـنـيـةـ.

وـعـلـيـهـ، إـنـ أـيـ جـهـةـ تـحـاـوـلـ فـرـضـ نـفـسـهـاـ سـلـطـةـ دـيـنـيـةـ تـحـرـمـ الـحـلـالـ وـتـحـلـلـ الـحـرـامـ مـتـواـطـئـةـ فـيـ إـثـمـ الشـرـكـ، وـهـوـ الـظـلـمـ الـعـظـيمـ.ـ وـيـتـأـكـدـ هـذـاـ إـذـاـ خـصـعـتـ هـذـهـ السـلـطـةـ الـمـزـعـومـةـ لـسـلـطـةـ الـحـاـكـمـ الـذـيـ يـقـومـ بـإـنـشـائـهـاـ وـالـتـحـكـمـ فـيـ قـرـاراتـهـاـ.ـ إـذـاـ قـالـ إـنـ مـوـالـاـ إـسـرـائـيلـ وـغـيـرـهـاـ مـنـ الـمـعـتـدـيـنـ جـائـزـةـ، بـلـ وـاجـبـةـ، قـالـواـ بـذـلـكـ مـنـ دـونـ أـنـ تـطـرـفـ لـهـمـ عـيـنـ.

وـإـذـاـ أـفـتـيـ بـالـتـبـرـجـ وـالـرـقـصـ (ـوـالـزـنـاـ الـمـتـلـفـزـ)، قـالـواـ آـمـيـنـ.ـ وـعـلـيـهـ، إـنـ مـحتـوىـ الـدـيـنـ لـاـ يـشـكـلـ، بـهـذـاـ

الفهم، عبر نصوص القرآن والسنّة، بل عبر أهواء الحكام، وهذا بابٌ ثالثٌ من أبواب الشرك، هو باب "من اتخد إلهه هواه"، سوى أن علماءنا الكرام يتخدون هوى غيرهم إلهاً! ولو عدنا إلى دعوى أن نصيحة الحكام لا بد أن تكون في السر، فإن هذا بابٌ آخر من أبواب تضييع الدين. فتعاليم الدين وضعت للتعظيم والنشر، وليس للنحو والمسارة، فلو أن شخصاً (حاكماً أو غيره) ارتكب الآثام في السر، فإن نصيحته في السر تكون مقبولةً. ولكن آثام الحكام بطبيعتها علنية، ما يوجب بيان الحكم فيها علينا.

ومن يقصّر في ذلك يعرّض نفسه لعقوبة كتمان ما أنزل الله من الكتاب لقاء ثمن قليل (مهما كانت المبالغ التي يتلقاها "كبار العلماء")، والعقوبة هي بالنص: "أَوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا الذَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُنَزَّكُ بِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ".

من المؤسف أن تتحول الدعوة السلفية، وهي المفترض فيها أن تحبّي ما مات من سنن الإسلام وتعيد مرجعيتها إلى ممارسات السلف الصالح (وليس كل من هب ودب)، إلى ترويج بدع ما أنزل الله بها من سلطان، مثل طاعة كل من غالب، وتحويل أهواء الحكام الفاسدين إلى مصادر تشريعٍ تعلو على القرآن والسنّة، والدعوة إلى كتمان ما أنزل الله، وتجريم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما أهم خصائص هذه الأمة كما جاء في صحيح التنزيل.

وقد أضرَّ هذا أكبر الضرر بالدعوة السلفية، زاد على ما نسب إليها من صلةٍ بالإرهاب والعنف والتنطع. وهناك الآن حاجةٌ ملحةٌ إلى إصلاحٍ شاملٍ، يعيد هذا التيار إلى المسار الصحيح، من وجهة نظره ومنطلقاته الأصلية. ونحن نترك هنا جانباً ما ورد في بعض الدراسات العلمية الرصينة لهذه التيارات إذ إنها، في الحقيقة، مبتدعة في الأصل، تعتمد تفسيرات المتأخرین في تعريف السلف الصالح، وتركز على ظاهر النصوص، لا على مضمونها، وتستند، في بعض مواقفها، إلى أحاديث طاهرة الوضع.

بل قبل ما تصف به نفسها من أنها اتباع للإسلام المبرأ من التزيّد والأهواء. فلا يمكن أن تروج مثل هذه الدعوة لمخالفة صريح القرآن، وممارسات الرسول الكريم (ص) وخلفائه، ومن لم نسمع منهم نهياً عن نصح الحكام وتقويمهم في العلن.

بل دعوا إلى ذلك علينا ("أشروا عليّ أيها الناس"، "إن أصبت فأعينوني وإن أخطأ فقوموني"، إلخ). وقبل ذلك كله وبعده، لم يكونوا يكذبون عليناً أو يروّجون أكاذيب المجرمين من "يقتلون الذين يأموون الناس بالفسطّ"، فمن أين يأتي هؤلاء بهذه البدع المنكرة؟

* د. عبد الوهاب الأفندي أكاديمي سوداني أستاذ العلوم السياسية بمعهد الدوحة للدراسات العليا.

